

1

الفصل الأول

العصر المبدئ لتاريخ الإمبراطورية 284 - 518 م

عصر دقلديانوس

وقسطنطين الأول وخلفاءه

واسرة ثيودوسيوس

الفصل الأول

1



العصر المبكر لتاريخ الإمبراطورية 284 - 518م

أولاً: تسمية الإمبراطورية

أطلق المؤرخون تسميات عدة على الإمبراطورية البيزنطية، مستندين في ذلك على آرائهم وأفكارهم التي تأثرت بدرجة ما بعصر النهضة الأوربية والاهتمام بالتاريخ الروماني واليوناني، ومن أشهر تلك التسميات:

1. الإمبراطورية الرومانية Roman Empire وقال بهذا الرأي عدد من المؤرخين أشهرهم Gibbon و Bury ويرون أن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ما هو إلا مرحلة من مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ولعل ما دفع هؤلاء إلى الأخذ بهذه التسمية والفكرة، هو أن الحكام البيزنطيين كانوا يعدون أنفسهم أباطرة الرومان وإنهم خلفاء القيصرية الرومان القدامى، فضلاً عن أن علاقاتهم بجيرانهم من الشعوب كانت تقوم على هذا المفهوم، إلا أن هذه التسمية غير دقيقة، لأن الشعوب التي عاشت على الحدود الجغرافية وقتها لم تكن رومانية ولأن الإمبراطورية على عهد الرومان القدامى كانت مساحتها تشمل كل أنحاء أوروبا والجزر البريطانية وآسيا الصغرى والشام والساحل الأفريقي حتى المحيط الأطلسي، وكانت العاصمة روما(1).

2. الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو المتأخرة: عندما اعترف الإمبراطور البيزنطي قسطنطين (306 - 337 م) بالديانة المسيحية كدين في الإمبراطورية سنة 312 م ، ونقل العاصمة من روما القديمة إلى العاصمة الجديدة التي بناها وهي القسطنطينية سنة 330م، بدأت الإمبراطورية تتأثر بالحضارة الشرقية، كما أن الإمبراطور تعذر عليه حكم الإمبراطورية مركزياً من القسطنطينية، وتعرض القسم الغربي وعاصمته روما إلى هجمات البرابرة الجرمان، وسقطت أخيراً بأيديهم سنة 476م، وهكذا انقطعت أوصال القسم الغربي، وبقي القسم الشرقي على حاله تقريباً حتى سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين سنة 1453م، كل هذه الحقائق دفعت بعض المؤرخين على إطلاق تسمية الإمبراطورية الرومانية أو المتأخرة، والرد على هذه التسمية، فان الوقت الذي تأسست فيه الإمبراطورية لم يكن فيه إمبراطور في الغرب(2).

3. الإمبراطورية الإغريقية أو الهلنستية: ويرى بعض المؤرخين أن الإمبراطورية البيزنطية هي إغريقية هلنستية ، وينعتون حاكمها بالإمبراطور اليوناني، ويعلمون ذلك بان الإمبراطورية

البيزنطية كانت امتداداً للحضارة الإغريقية القديمة، وإذا أخذنا بهذه التسمية فأين الحضارة الرومانية التي تأثرت بها الإمبراطورية البيزنطية في القرون الأربعة الأولى، كما أن شعب الإمبراطورية البيزنطية لم يكن إغريقياً أو يونانياً فقط بل كان اليونانيون يمثلون جزءاً محدوداً من شعوب الإمبراطورية، ولذا فإن هذه التسمية لا تصح على الإمبراطورية البيزنطية⁽³⁾.

4. أطلق العرب قبل الإسلام وبعده على الإمبراطور البيزنطي اسم إمبراطور الروم، وقد جاءت لفظة روم في نقوش أصفاء، اسم بلاد واسم شعب، وتكررت عدة مرات في تلك النقوش⁽⁴⁾، ولما جاء الإسلام، فقد جاء في القرآن الكريم سورة هي سورة الروم ﴿الم (1) غلبت الروم (2) في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (3) في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (4) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (5)﴾⁽⁵⁾. واستمرت المصادر العربية الإسلامية تطلق كلمة روم، وإمبراطور الروم، وطاغية الروم على حاكم هذه الدولة، وأحياناً كلمة روم بما يناسبها في الاستخدام⁽⁶⁾.

5. الإمبراطورية البيزنطية: تعد هذه التسمية حديثة، أطلقها عدد كبير من المؤرخين والباحثين مستمدين تلك التسمية من عنصرين أساسيين هما: تحديد كيان الإمبراطورية ولها مساحتها الجغرافية وتقاليدها وحضارتها، وهي عكس التسميات السابقة التي تتداخل مفاهيمها فيما بينها، وأن جوهر هذه المفاهيم المختلفة يكمن في طبيعة العناصر الرئيسة التي دخلت في تكوين التاريخ البيزنطي، وهذه العناصر هي مبادئ الرومان ومفاهيمهم السياسية والحضارات اليونانية الهلنستية والديانة المسيحية، وأن اقتران الحضارة الهلنستية بالديانة المسيحية في نطاق الإمبراطورية الرومانية أدى إلى قيام ما يسمى بالإمبراطورية البيزنطية⁽⁷⁾، وأطلق الآثاريون في القسطنطينية على سكان الإمبراطورية اصطلاح البيزنطيين في بعض الأحيان حيث كان اسم الرومان أو أهل القسطنطينية اصطلاحين يفتقدان إلى الدقة ولا يعبران عن الحقيقة، ثم انتقل اصطلاح البيزنطيين إلى الغرب واستعمله المؤرخون المحدثون من باب التيسير والتسهيل⁽⁸⁾.

إن تسمية الإمبراطورية بالبيزنطية هي تسمية مناسبة ودقيقة ولها ما يبررها، فكلمة بيزنطة مرجعها إلى أن الإمبراطور قسطنطين (306 - 337م) عندما بنى عاصمته الجديدة القسطنطينية سنة 330م، بناها على أنقاض مدينة قديمة تسمى بيزنطة (بيزنطيوم) التي أسسها بيزا Byzas قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت إلى هذا المكان في القرن السابع قبل الميلاد

وتحديداً سنة 657 ق.م، وعندما عرفت المدينة باسم بيزنطة نسبة إلى هذا القائد⁽⁹⁾، ولهذا تعد هذه التسمية "الإمبراطورية البيزنطية" انسب التسميات لهذه الإمبراطورية ويرى فازيليف بان كلمة بيزنطة لم تعد مقتصرة على التسمية السياسية والجغرافية بل عبارة عن امتزاج بين التعاليم المسيحية والتراث الهلنستي الوثني، نشأ عنه ثقافة خاصة يشار إليها بالثقافة المسيحية الإغريقية تمركزت بروما الجديدة " القسطنطينية"⁽¹⁰⁾.

ويرد أحياناً تسمية إمبراطورية القسطنطينية، والتسمية غير دقيقة من الناحية التاريخية، لان مساحة الدولة لم تقتصر على مدينة القسطنطينية، وان من أطلق تلك التسمية كان مقصده تحقير وتقليل شأن الإمبراطورية لاسيما عندما اشتد العداء الديني بين الشرق والغرب المسيحي وازداد استعماله إبان الحروب الصليبية، التي أرجعت أسباب فشل حملاتها اللاحقة على عاتق الإمبراطورية البيزنطية⁽¹¹⁾.

ونجد أن تعدد التسميات القديمة والحديثة للإمبراطورية يحكمه عاملان مهما هما:

1. المساحة الجغرافية التي تفرض فيها السيادة والسلطة عليها.
2. الشعوب التي تقطن تلك المساحة وتبني حضارتها.

أما عن بداية تاريخ الإمبراطورية البيزنطية فقد وردت آراء مختلفة وأشهرها ما رآه Ostro-gorsky ، أن بداية التاريخ البيزنطي تعود إلى الوقت الذي تغلبت فيه الإمبراطورية على الأزمة التي انتابتها في القرن الثالث في أجزائها الغربية وبقية الأجزاء الشرقية على العموم محافظة على قواها المادية، ويعتقد أن التاريخ البيزنطي قد مرّ بثلاث مراحل انتقالية من عصر روماني أخير إلى عصر بيزنطي ويمكن تسمية الفترة الانتقالية بالتاريخ البيزنطي المبكر والتي تبدأ من سنة 284م⁽¹²⁾.

بينما يرى Hessey أن بوادر افتراق القسم الشرقي عن نظيره الغربي، وتوجه قسطنطين الشرقي في المجالات الدينية السياسية منذ اعترافه بالمسيحية وتبنيه لها وتشيده القسطنطينية جاعلاً منها مقراً لحكمه ورمزاً لجديد الاتجاهات في الإمبراطورية⁽¹³⁾.

ومن يرى أن القسم الغربي قد خرج عملياً عن السيطرة الرومانية على اثر الانقلاب الذي دبره الجنرال البربري ادوكر Odovacar سنة 476م بالاتفاق مع مجلس الشيوخ في روما ضد روميلوس Rumulus واستحواذه على الحكم في ايطاليا⁽¹⁴⁾.

في حين يرى آخرون أن القرن السادس الميلادي هو بداية التاريخ البيزنطي(15).

ولكن أكثر الآراء دقة هي التي ترى أن القرون الثلاثة الأولى التي تبدأ من القرن الرابع الميلادي وما حدث من خلالها من تطورات على الصعيد السياسي والحضاري التي تعد فترة انتقالية للإمبراطورية من الرومانية إلى البيزنطية، وان بداية الإمبراطورية ترتبط بعنصرين هما:

1. نقل العاصمة من روما القديمة في الغرب إلى القسطنطينية في الشرق.

2. الاعتراف بالديانة المسيحية.

ولما كان الإمبراطور قسطنطين العظيم (306 – 337م) هو الذي بنى العاصمة الجديدة القسطنطينية، وهو الذي اعترف بالديانة المسيحية، فان بداية التاريخ البيزنطي تبدأ من عهد هذا الإمبراطور(16). وان هذا التحديد له ما يبرره، لان الإمبراطورية الرومانية قد واجهت في القرن الثالث الميلادي ثلاث أزمات تمخض عنها ظهور الدولة البيزنطية وهذه الأزمات هي:

1. عدم الاستقرار السياسي والاضطراب في الأوضاع الاقتصادية الذي تعرضت له الإمبراطورية البيزنطية.

2. غارات القبائل الجرمانية والفرس.

3. قصور الوثنية وعدم قدرتها على تلبية حاجات الناس الدينية والنفسية وغيرها(17).

وبذلك تعد سنة 324م بداية التاريخ البيزنطي، وهو بداية بناء القسطنطينية وخلالها تم الاعتراف بالديانة المسيحية.

ثانياً: الإمبراطور دقلديانوس 284 – 305م

ينتمي **دقلديانوس** إلى مقاطعة دالماتيا Dalmatia التابعة إلى إقليم ايليريا، فقد ولد هناك بالقرب من مدينة صغيرة هي سالونا Salona سنة 245م، وكان والداه خادمين في أسرة انيولينوس Anulinus النبيلة وسيدها كان احد أعضاء مجلس السناتور "مجلس الشيوخ"، وبعد فترة حصل والده على الحرية لأسرته، وحصل الابن دقلديانوس على وظيفة كاتب في الدولة، وبفضل جهوده ونبوغه اخذ يتدرج في مناصب الدولة إلى أن وصل إلى مرتبة عليا، وهي وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطوري، وقد ظهرت كفاءته وقدرته العسكرية أثناء الحرب مع فارس، وبعد وفاة الإمبراطور نومريانوس Numerianus (283 – 284م)، عين دقلديانوس خلفاً له في منصب الإمبراطور نظراً لما يتمتع به من مزايا(18).

وجد الإمبراطور دقلديانوس، أن الإمبراطورية تواجه مشاكل خطيرة جداً ونظراً لاتساع رقعتها وسوء إدارتها، ولذلك ركز اهتمامه على تنظيم الجهاز الإداري، وقام بمحاولات وصادر التشريعات التي كان هدفه منها بناء نظام إداري جديد، ومن تلك الإجراءات:

1. فصل النظام الإداري عن النظام العسكري.
 2. فصل الحكومة المركزية عن حكومة الأقاليم.
 3. اخضع الإدارة لإشرافه المباشر.
- وبذلك أصبح الإمبراطور على قمة الوظائف الحكومية(19).

وقام الإمبراطور بإصلاحات عديدة أهمها:

الإصلاحات الإدارية، فقد رأى الإمبراطور أن إمبراطوريته تتعرض لهجمات البرابرة من جهة الغرب، والفرس من جهة الشرق فضلاً عن أطماع بعض قادة الجيش من اجل السيطرة على السلطة، لذلك فكر ببناء قوة عسكرية كبيرة يسهل المناورة فيها من مكان إلى آخر لقمع تلك الأخطار، وهذا ما دفع الإمبراطور إلى تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين شرقي وغربي، يحكم كل منهما إمبراطور أو أغسطس ليضمن انتقال العرش بسلام، ولقطع الطريق أمام الخارجين والطامعين، كما انه جعل لكل امبراطور - قيصرًا Caesar يساعده ويكون وريثه من بعد موته(20).

عين الإمبراطور دقلديانوس صديقه مكسيميان Maximian على القسم الغربي، وعين قسطنطينوس Constantinus قيصرًا للإمبراطور مكسيميان، في حين تولى الإمبراطور دقلديانوس القسم الشرقي، ونائبه القيصر جاليريوس Galerius وأطلق على هذا "الحكم الرباعي"، كما انه قسم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية عرفت باسم Prefecture وهي:

1. ايطاليا وعاصمتها ميلان Milan.
2. غالة وعاصمتها ترييف Trier الواقعة على نهر الراين.
3. ايليريا Hlyricum وعاصمتها سرميوم Sirmium "بلغراد الحالية".
4. الجانب الشرقي الآسيوي وعاصمتها نيقوميديا Nikomidia الواقعة على الشاطئ الآسيوي للبويسفور، وبذلك اقتسم الحكام الأربعة أي الأباطرة ونوابهم الإمبراطورية فيما بينهم(21).

والواقع أن فكرة التقسيم هذه كانت معروفة وقديمة جداً، وترجع إلى أيام القياصرة الأوائل حين أحسوا بضرورة وزير يوناني وآخر لاتيني، وهكذا فإن طابع هذا التقسيم الإداري كان الهدف منه المحافظة على وحدة الإمبراطورية، وتيسير إدارتها والدفاع عنها، إلا أن هذا التقسيم لم يخل من العيوب التي ظهرت لاحقاً، لأنه قد زابت فيه الوحدة السياسية في العالم الروماني تدريجياً وساد مبدأ التقسيم الذي كان سبباً في الفصل الدائم بين أجزاء الإمبراطورية فيما بعد، فضلاً عن فداحة تكاليف الإدارة الحكومية الجديدة والتي تتطلب زيادة الضرائب على الناس لسد تلك النفقات(22).

كان النظام الجديد الذي وضعه دقلديانوس قد ضم في خطة شاملة محكمة كافة الإصلاحات العسكرية والأساليب الناجحة لجباية الضرائب والقواعد الصارمة للإشراف الحكومي التي دلت التجربة على حاجة الإمبراطورية الماسة إليها وقتها، ولا يمكن الجزم ما إذا كان دقلديانوس قد أصر على بقاء التقسيم الرباعي للسلطة وذلك لأن الظروف الطارئة سلبته القدرة على التحكم في زمام الموقف كله، غير أن نظامه الجديد قد افلح في استرجاع الحدود القديمة وفي سحق عناصر الفوضى الداخلية(23).

أما الإصلاحات العسكرية، فقد ادخل الإمبراطور إصلاحات كبرى على نظام الجيش، فقد فصل السلطتين المدنية والعسكرية عن بعضها، وكان هدفه أن يعد العدة للدفاع عن دولته وأن يكون إلى جانب حراس الحدود *Limitanae*، قوة منتظمة يمكن أن تقدم النجدة والعون إلى أي مكان يواجه المخاطر، كما أنه منح قوات الحدود هبات واقطاعات من الأراضي وراثية، على أن يلتزم الابن مكانة أبيه عند وفاته، واعتمد على الفرق المؤلفة من البرابرة من المرتزقة في حماية الإمبراطورية، وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الأربعة(24)، ويبدو أن عدد أفراد الجيش قد ازداد، كما أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجندي ليرتقي ويصبح ضابطاً، ويتدرج إلى أعلى المراتب شريطة أن يكون شجاعاً ومخلصاً للإمبراطورية(25).

وقام الإمبراطور بإصلاحات اقتصادية ومالية، أهمها إصلاح نظام العملة وإصدار عملة ذهبية جديدة وأخرى فضية، كما ادخل تعديلات على وزن الدينار البرونزي القديم، وكان هدف الإمبراطور من هذه الإجراءات هو منع تدهور قيمة العملة، كما أنه اصدر قائمة تحدد أسعار السلع الضرورية في عموم الإمبراطورية، إلا أن التجار عارضوه وقاوموا تلك الإجراءات، لذلك لجأ الإمبراطور إلى استخدام القوة المفرطة لتطبيقها، إلا أنه فشل، وأدت هذه الإجراءات إلى

اختفاء السلع من الأسواق مما اضطر الحكومة إلى إهمال التسعير واخضع الإمبراطور جميع ولاية الإمبراطورية لنظام ضرائبي جديد وموحد بدلاً من النظم السابقة، ويتخلص هذا النظام في فرض ضريبة مزدوجة على الأفراد والأرض وبنسبة متساوية في جميع أنحاء الإمبراطورية(26).

اعتزل الإمبراطور دقلديانوس الحكم سنة 305م، وعمره قارب التاسعة والثمانين عاماً بعد أن أصيب بعزل الشيخوخة المبكرة، وقضى أعوامه التسعة الأخيرة معتكفاً الحياة العامة، كما اعتزل صاحبه مكسيميان الحكم أيضاً وربما كانت هذه المصادفة قد تمت باتفاق سابق بينهما(27).

ثالثاً: الإمبراطور قسطنطين العظيم The Great Constantin

1. الفترة المضطربة 305 - 334م

ترك النظام الرباعي الذي أسسه الإمبراطور دقلديانوس آثار مباشرة، فالذي حدث انه بعد تخلي دقلديانوس ومكسيميان العرش، وكان لهما أبناء فابن قسطنطينوس هو قسطنطين Con-stantin وابن مكسيميان هو مكسينتوس Maxentius، وحاول جاليروس Galerius أن يفرق بين قسطنطين وأبيه، فقد التحق قسطنطين بأبيه في الجزر البريطانية، ولما مات والده في مدينة يورك York نادت الحامية الرومانية بقسطنطين أوغسطاً، في الوقت نفسه أعلن مكسنتيوس نفسه حاكماً على إيطاليا وأفريقيا، واتسم حكمه بالطغيان ونفرت منه الرعية، عندها استغل قسطنطين ذلك النفور وتحرك بجيشه وتولى إدارة غالة ثم ضم إيطاليا بالقوة بعد هزيمة مكسنتيوس وقتله عند جسر مليفان Milven Bridge سنة 312م خارج مدينة روما، ثم اعدم أبناؤه ونكل بمؤيديه، كما انه اصدر عفواً عن الذين ساهموا إلى جانب مكسنتيوس في الحرب(28)، وأبدى قسطنطين اهتمامه بمجلس السناتو فزاره وأكد احترامه له ووعد بدعته، وفي مقابل ذلك، اصدر المجلس مرسوماً يقضي بتعيين قسطنطين إمبراطوراً على القسم الغربي، وعده احد القديسين أو الآلهة، وبذلك حقق قسطنطين اعتباراً معنوياً إلى جانب سلطته الحقيقية المستندة على رجال الجيش وقوته(29).

أما في الجانب الشرقي فقد مرّ هو الآخر بحالة اضطراب وحرب أهلية إلى أن تمكن لسينوس Licinus حليف قسطنطين في السلاح من تحقيق النصر على خصومه، وتولى بعدها حكم الجانب الشرقي من الإمبراطورية، ودام حكم قسطنطين للجانب الغربي ولسينوس للجانب

الشرقي من سنة 312 - 324م ، وان كانت هذه الفترة لاتخلو من مشاكل واضطرابات، لا سيما أن الحرب قد اشتعلت بين الحاكمين عدة سنوات بسبب مطامع كل منهما لفرض سيطرته على الإمبراطورية، ودرت معارك عنيفة بينهما، منها معركة أدرنه Adrianopole وخرسبولس Chrysopolis، وانتهت تلك المعارك سنة 324م بانتصار عسكري باهر حققه قسطنطين على خصمه، وانتهى الأمر بموت لسينوس، ومنذ ذلك التاريخ حتى سنة 337م، انفرد قسطنطين الكبير بالحكم لوحده، يساعده حكام عينهم بنفسه، وبذلك ألغى قسطنطين النظام الرباعي الذي أوجده دقلديانوس(30).

2. شخصية قسطنطين:

وضعت هيلينا Helena زوجة قسطنطينوس كلوروس Constantinus Chrons ولدها قسطنطين في مدينة نيش في إقليم داكيا سنة 280م، واحتفظ منذ طفولته حتى أواخر أيامه بقوة وصحة لالتزامه العفة وضبط النفس، وعندما بلغ الثامنة عشر ارتقى والده إلى منصب قيصر، إلا أن ابنه لم يلتحق بوالده عندما ذهب لتولي منصب في بريطانيا، وفضل البقاء في خدمة الإمبراطور دقلديانوس، واشترك قسطنطين في حرب الإمبراطور ضد مصر وبلاد فارس، وترقى أخيراً إلى منصب القائد العام في الجيش، ولصفاته وإخلاصه وحبه لجنده قد خدمته إلى الترشيح لمنصب قيصر، وعندما تنازل دقلديانوس عن العرش سنة 305م رفع جاليروس إلى منصب الإمبراطور حسب النظام الذي وضعه دقلديانوس "النظام الرباعي"، إلا أن جاليروس كان يبغض قسطنطين، ويكن له الكراهية لذلك بدأ العداء بينهما، مما اضطر قسطنطين إلى مغادرة نقيموديا والتحق بوالده في بريطانيا كما مر(31).

استطاع قسطنطين أن ينفرد بحكم الإمبراطورية سنة 324م، وتعد هذه السنة بداية حكمه المرحلة الانتقالية وبداية قيام الإمبراطورية البيزنطية لما شهدته من أحداث مهمة، أفردت للقسم الشرقي من الإمبراطورية وجهة جديدة وخصوصية ميزتها عن القسم الغربي، ومن أهم تلك الأحداث:

1. الاعتراف بالديانة المسيحية.

2. بناء القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الجديدة(32).

1. الاعتراف بالديانة المسيحية:

عانت الديانة المسيحية وأتباعها الكثير من الاضطهاد والتعذيب بتشجيع من الأباطرة الرومان، حتى أن الإمبراطور دقلديانوس حين اعتلى العرش سنة 284م، سمي ذلك العام بعام الشهداء لشدة ما اتخذه من إجراءات صارمة بحق المسيحيين⁽³³⁾، والمقصود بالاعتراف بالديانة المسيحية، هو أن الإمبراطور قسطنطين أعلن الاعتراف بالديانة المسيحية كدين داخل الإمبراطورية وليس ديناً رسمياً لها، وهذا الأمر تم في وقت لاحق لعهد قسطنطين، أما مسألة اعتناقه المسيحية فهو موضوع آخر.

وبوصول قسطنطين العرش البيزنطي، كانت الديانة المسيحية قد تغلغت في كيان الإمبراطورية منذ ثلاثة قرون، وحتى في مرحلة الاضطهاد التي تعرض لها المسيحيون، فقد انتشرت المسيحية أكثر من قبل.

مرسوم ميلان Edict of Milan أو مرسوم التسامح Edict of Toleration الذي صدر سنة 312م، وأصدره الإمبراطور قسطنطين الذي أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة المسيحية، وعدّ هذا المرسوم قانوناً أساسياً من قوانين العالم الروماني ومن هذا المرسوم:

"عندما تقابلنا نحن قسطنطين اوغسطس ولسينوس اغسطس في ميلان مكلين بالرعاية والعناية، أخذنا نبحت في جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا، ومن هذه المسائل التي تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم، مسألة حرية العقيدة، لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى، حرية اختيار وممارسة العقيدة التي يرضونها، وبذلك نضمن رضاً جميع الآلهة والقوى السماوية علينا، كما نضمن رضاً جميع رعايانا ممن يعيشون في كنف سلطتنا، وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يحرم أي فرد كائناً من كان من اختيار المسيحية ديانة له، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه... وهذا المرسوم الذي صدر من فيض كرمنا، يجب أن يذاع على الجميع، ويجب أن يحيط به الجميع، علماً وينشر في كل مكان حتى لا يفوت احد الأخذ به"⁽³⁴⁾.

وهناك عدة حقائق يمكن تأشيرها وهي:

1. أن المسيحية ظلت حركة سرية منذ بدايتها حتى إعلان مرسوم ميلان سنة 312م.

2. تعرض المسيحية للاضطهاد والتعذيب من بعض الأباطرة، لا بل غالى بعضهم في ذلك.
3. لم يكن مرسوم ميلان أول مرسوم بالتسامح للمسيحية بل سبقه المرسوم الذي يحمل اسم جاليروس ولسينوس سنة 305 - 306م.
4. أن مرسوم جاليروس لم يصدره الإمبراطور منفرداً بل مع شريكه في الحكم لسينوس(35).

ومهما يكن من أمر، فإن المسيحية أصبحت بموجب مرسوم ميلان على قدم المساواة، مع بقية الأديان الأخرى، ولم تقتصر سياسة قسطنطين تجاه المسيحية بالاعتراف بها فقط، بل انه منح رجال الدين المسيحيين نفس الحقوق والامتيازات التي منحت للكهنة وإعفاؤهم من ضرائب الدولة والواجبات الأخرى مثل الخدمة في المناصب الحكومية، كما اعترفت الدولة بالجماعات المسيحية كوحدات قضائية فمُنح الإمبراطور المحاكم الأسقفية امتيازات هامة للغاية، وعند نهاية عهد قسطنطين اتسعت سلطة المحاكم الأسقفية لتشمل:

1. لا يكون هناك رد لحكم الأسقف.
2. يمكن تحويل أي قضية مدنية إلى المحاكم الأسقفية في أية مرحلة من مراحلها وبدون موافقة المتخاصمين.
3. يصادق القضاة الاهليون على قرارات المحاكم الأسقفية.

وهكذا ظفرت المسيحية في عهد قسطنطين بانتصار ساحق وكبير، وكان له نتائج المستقبلية على الإمبراطورية ووحدتها وعقب وفاة قسطنطين أصبحت المسيحية الديانة الرسمية المقدسة للدولة(36).

غير أن قسطنطين قد جابهته مشكلة جديدة في داخل المجتمع المسيحي ألا وهي مشكلة الاريوسية التي أخذت تهدد مجتمعات آسيا الصغرى والجهات الشرقية بصورة خاصة بالتفكك(37).

لقد تأثر الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية ودلينا على ذلك دعوته إلى عقد المجمع المسكوني في نيقية سنة 325م، وهو أول المجمع المسكونية التي تولى تقرير ما تجري عليه الكنيسة المسيحية من عقيدة ونظام، واهم الأمور التي ناقشها هذا المجمع مذهب اريوس الاسكندري الذي أنكر فيه صفة الشبه بين الأب والابن حسب اعتقادهم، وعدّ السيد المسيح (مخلوقاً وبذلك

أنكر الوهيته، حسب اعتقادهم، وبذلك حاول قسطنطين أن يطوع الكنيسة لإغراضه السياسية لتحقيق وحدة الإمبراطور(38).

2. بناء القسطنطينية:

أعقب انتصار قسطنطين على خصمه لسينوس، توحيد الإمبراطورية التي أصبحت مترامية الأطراف، ولأنها تحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى عاصمة جديدة بدلاً من روما القديمة، ولتكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أي عدو داخلي أو خارجي، ولما كان الخطر الذي يهدد الإمبراطورية مصدره من الشرق أكثر من الغرب، ولأن التطورات التي طرأت على الجبهة الأرمنية والشامية والدانوبية كبيرة، فضلاً عن أن الفرس كان يحركهم هدف التوسع على حساب الإمبراطورية، كما أن القبائل الجرمانية أخذت تهدد حدود الإمبراطورية عند الدانوب، ولم تعد تصلح روما القديمة ذات التقاليد الجمهورية مكاناً للأباطرة، كل تلك العوامل دفعت بعض الأباطرة إلى اتخاذ مقراتهم الإدارية العسكرية في الشرق(39)، وكانت هناك محاولات لجعل الإسكندرية أو موضع طروادة في آسيا الصغرى، وان الإمبراطور دقلديانوس قد أقام في نقيموديه(40).

حاول الإمبراطور قسطنطين أن يبني عاصمة جديدة، لم تكن القسطنطينية هي الموضع الأول الذي فكر فيه أول الأمر، فقد فكر في أماكن عديدة ليتخذها مقراً لحكمه الجديد، فأعجبه مسقط رأسه في مدينة نيش Nish الواقعة في مورافيا Moravia وسط شبه جزيرة البلقان، ثم مدينة سردিকা Serdica (صوفيا الحالية)، كما انه فكر في طروادة نقمودية، ألا أن جميع تلك المواقع والمواضع لم تلق القرار النهائي، لان الإمبراطور فضل منطقة الحدود بين آسيا وأوروبا ليتمكن من مراقبة وصد أعدائه البرابرة من الدانوب والفرس من الشرق، ولذلك وقع اختياره على موضع قديم هو موقع القسطنطينية الذي كان اسمه بيزنطة أو بيزنطيوم Byzantium وكانت بالأصل مستعمرة يونانية أسسها بيزاس Byzas قائد مجموعة المغارا Megara اليونانية سنة 657 ق.م، وهذا المكان كان يتصدر جميع تلك المواقع الممتازة على البحر المتوسط بين الشرق والغرب، وكونها سوقاً تجارياً للبحرين الأسود والمتوسط(41).

ولموقع بيزنطة الجغرافي مميزات أخرى، فهي تقع عند مدخل البوسفور، وبشكل مثلث يلتقي طرفه المنفرج الذي يمتد شرقاً على شواطئ آسيا بأمواج البوسفور، وتحد الميناء الجزء